



ينعكس تاريخ الأمم وقيمها في مفرداتها اللغوية. واللغة الإنجليزية (كاللغة العربية) متأثرةً بمحيطها وبيئتها؛ كما أنّ تاريخها مرتبط جداً بتاريخ الغرب وثقافته وتطوره عبر العصور.

دارونية الطبقات الاجتماعية (أو التمييز العنصري العلمي!) في فلسفة الغرب النصراني:

في بريطانيا، كتب عالم الاقتصاد البريطاني توماس روبرت مالثوس (1766-1834) "مقالة في مبدأ التكاثر السكاني" عام 1798؛ يرى فيها أنّ خطط التطور المتطرد للمجتمع المثالي تنتكس بسبب أخطار النمو السكاني: «إنّ قدرة التكاثر السكاني أكبر بكثير من قدرة الأرض لإنتاج رزق الإنسان؛ لذا فالتكاثر السكاني إذا ما استمر دون توقف، يزداد بمتواليّة هندسيّة، في حين أنّ الرزق يزداد بمتواليّة حسابيّة. ومعرفة بسيطة بالأرقام توضح ضخامة القوة الأولى إذا ما قورنت بالثانية». ويرى مالثوس، وهو رجل دين في الكنيسة الإنجليزيّة (انجليكاني) وزميل كلية عيسى المسيح (أنثوخيّ زميلاً لها عام 1793)!!!، يرى أنّ مجتمعات المساواة الحرة



بين لغتين: عنصرية اللغة الإنجليزية، وإنسانية اللغة العربية - عرض ونقد

أ.د. مهدي عبد الرزاق الفلوجي - لندن

أستاذ الجراحة والمشرف على:
معهد تاريخ الطب والعلوم عند العرب
والمسلمين (www.ihams.org)

عرضةً للانفجار السكاني، يصفها مالثوس بتعبير دراميّ مثير: «تكتسح الأوبئة الجائحة والأمراض المميتة والطاعون بشكل مروّع لتُهلك الآلاف وعشرات الآلاف منهم. فإذا لم تتجح هذه تماماً، فإنّ موجات المجاعة (والحروب) تأتي متأخرة، وبضربة قاضية واحدة، تقوِّض منسوب التعداد السكانيّ وتعُدِّله ليتساوى مع منسوب الغذاء في العالم». وانتقد مالثوس قوانين دعم الفقراء وعدّ أنّ تكاثر السكان ينضبط متناسباً مع حدود الموارد المتوافرة بنوعين من الضوابط: الضوابط الإيجابية، التي ترفع نسبة الوفيات (كالمجاعة والأمراض والحروب)، وضوابط سلبية، تخفّض نسبة الولادات، كالإجهاض، وتحديد النسل، والبقاء، وتأجيل الزواج، والعزوبية (الامتناع عن التناسل).

ناقش مالثوس بأنّ التكاثر السكاني يفوق اعتيادياً موارد الغذاء، مما يؤدي بالتالي إلى موت الأضعف جوعاً، وهو ما يسمّى بفاجعة أو أزمة مالثوس. ولا يزال المؤرخون الأوروبيون يعللون الاستعمار الإسباني والأوروبي للأميركتين وقتل سكانها الأصليين على أنّه جاء نتيجةً لأزمة مالثوس!!!

وفي الوقت الذي عدّ الآخرون زيادة الإخصاب ذا فائدة اقتصادية (لازدياد عدد العمّال المتاحين للعمل)، وقف مالثوس ضده لأنه اعتقد أنّ الإخصاب رغم رفعه للإنتاج الإجمالي، إلاّ أنّه يخفّض الإنتاج للرأس الواحد من العمّال. كما

إنّته ناقش بأنّ فرص العمل تزداد بزيادة تعداد السكان، ولكن ببقاء حاجة العمل ثابتة، فإنّ ذلك يؤدي لهبوط أجور العمّال مما يؤدي أخيراً لتقليل إعالة العيش، حيث تتساوى حينذاك نسبة الولادة مع نسبة الوفاة، مما يؤدي بالتالي لتوقف النمو السكاني. لكن تقديرات مالثوس حول ثبوت حاجة العمل في إنجلترا كانت خاطئة، لأنه أهمل تأثيرات الثورة الصناعية التي زادت كثيراً في منسوبات التقنية والإنتاج ومؤدية لزيادة الحاجة للعمل (تنبؤ مالثوس للمستقبل كان خطأً).

واعترز مالثوس الإلغاء التدريجي لقوانين الفقراء بتخفيض عدد الأفراد المؤهلين للإعانة (تاركاً إعانتهم في ذلك للمؤسسات الخيرية وفي الضرورة القصوى). وبرّر ذلك بأنّ إعانة الفقراء تقف ضدّ مصالحهم أنفسهم عن طريق تخفيض عدد العمّال وبالتالي رفع أسعار السلع وتقويض استقلالية ومرونة تكييف المزارعين. وبمعنى آخر، فإنّ قوانين الفقراء تؤدي إلى «خلق طبقة من الفقراء وتحافظ عليها».

كما قام بدعم قوانين الحبوب، التي أدخلت نظاماً من الضرائب البريطانية المفروضة على القمح المستورد. واعتقد مالثوس أنّ هذه الوسائل تشجع الإنتاج الوطني، وتعزز الفائدة على المدى البعيد. وناقش مالثوس أنّه بتشجيع الإنتاج الوطني، فإنّ قوانين الحبوب ستضمن لبريطانيا الاكتفاء الذاتي في الغذاء.

مسائى نظرية مالثوس: تنبأ مالثوس بأزمة

سكانية تتفجر في أواسط القرن الـ 19، ولكن لم يحدث شيء! ثم تنبأ أنصار مالثوس الجدد في كتابهم (قيود النمو) لعام 1972 بأزمة مستقبلية أخرى، كذلك كانت نبوءة خاطئة.

كذلك فإنّ محاولات الحدّ من النمو البشري عن طريق تنظيم الأسرة هي محاولات تداخلية جراحية، وأحياناً قسرية وحشية (مثل عمليات العقم على نطاق واسع، أو سياسة الطفل الواحد، المتبعة في الصين) وغالباً ما يرفضها الناس بالفطرة.

وحديثاً صارت ظاهرة "تأنيث الطبيعة" (بسبب التلوّث الكيميائي الواسع للكون) مثل الوباء الجائح، متسبباً بانتشار العقم كمرض الطاعون (أنظر كتاب ديورا كادبوري: تأنيث الطبيعة. طبعة هامش هاملتون (بنجوين) لندن 1997).

كما أنّ مجلة 'إيكونوميست' (إصدار تشرين أول/تشرين ثاني 2009، ص 35-38) نشرت مقالاً على (انخفاض الخصوبة وكيف أنّ مشكلة السكان تحلّ نفسها بنفسها)، وأنها ستُهيبط أعداد العالم المتوقعة 9.2 بليون نسمة عام 2050 إلى 8.5 بليون نسمة. كما وترتبط المقالة بين ثراء العائلات وبين هبوط الخصوبة، (والعكس بالعكس صحيح): فتنصّ على أنّ الثراء يقلل الخصوبة، كما أنّ قلة الخصوبة تسبّب الثراء.

إنّ استعمار الأوروبيين للعالم الجديد وهم مندفعين برؤية مالثوس، تسبب بجشع لا يُشبع في جبههم لموارد الغذاء، وطمع للمال بلا حدود، وحبّ لجبروت القوة، والتسلط على الآخرين (وكأنه حق الولادة لأفراد الجنس الأبيض المتقوق - أنظر تحت).

في الواقع إنّ استعمار العالم الجديد قد أدى أولاً إلى إبادة سكان أميركا الأصليين مما تسبّب بدوره بنقص حادّ في عدد الرجال العاملين، مع ازدياد الحاجة الماسّة لاستيراد الأفارقة العبيد (الذين شرّدهم من ديارهم) من أجل حلّ مشاكل المستعمرات الزراعية لتزريع، وعلى مستوى واسع، الفلّات المختلفة: القطن، القهوة، التبغ، قصب السكر، سيزال (ليف أبيض متين تُتخذ منه الحبال)، أنواع البذور الزيتية، وأشجار المطاط.

لقد كانت الحاجة ماسة لملايين العبيد من أجل تحقيق أحلام المستعمرين التصنيعية، فمثلاً

إنشاء (قناة باناما) لوحدها أدّى لوفيات هائلة وموت 28000 عاملاً (بسبب الحمى الصفراء والملاريا، والإنجراضات الطينية).

في الواقع، إنّ المشكلة لا تكمن في ازدياد النمو السكاني (كما يعتقد أنصار مالثوس)، ولكنها تكمن في سوء التوزيع الجائر بين السكان. والأهم من ذلك فإنّ التخطيط الجيد يؤدي اعتيادياً إلى وفرة الإنتاج للغذاء؛ بكلمة أخرى، فإنّ أساس المشكلة يكمن في وفرة الإنتاج وسوء التوزيع. إنّ حصة الفرد الواحد من الغذاء، ووجبات الطعام البشرية قد صارت اليوم أكبر من ذي قبل؛ حتى صارت السمنة المفرطة اليوم داءً مستشرياً كالوباء الجائح في العالم.

وحقيقةً، فإنّ وسائل الإعلام قلقة بشأن جبال الزيد والجبن المخزّن، والذي ماع وتلاشى أو صار نفايات (تُرمى في البحر) كلّ ذلك من أجل تثبيت ورفع أسعار السلع، حسب قوى السوق في العرض والطلب. كذلك، فإنّ هناك جبال الحبوب (من القمح والشعير والشوفان)، وبحيرات من الحليب والعسل (هذا عدا بحيرات الخمر)؛ ولم يوزع شيء من هذا الفائض الغذائي الهائل بالتساوي داخلياً، ولا هو أرسل إلى الأقطار الفقيرة لتخفيف معاناتها.

بالرغم من مساوئ نظرية مالثوس العديدة، لكن مالثوس أثر في السياسيين وصنّاع القرار في العالم الجديد لافتعال حروب كوسيلة لتخفيض سكان الأعراق الرديئة لصالح العرق الأوروبي الأبيض المتقوق (مُعزّزاً بذلك نظرة مركزية أوروبية للعالم). والحقيقة أنّ نظرية مالثوس أثرت في سياسة شركة الهند الشرقية البريطانية (كان جيمس ميل، الحاكم العام للشركة الذي شغل منصبه 1828-1835 صديقاً حميماً ومُعجباً كبيراً بـ مالثوس). كما أنّ رئيس الوزراء البريطاني وليم بيت الصغير (الذي شغل منصبه 1783-1801 وأيضاً 1804 - 1806) كان أحد المُميّزين المتأثرين بـ مالثوس، فبعد قراءته لكتابات مالثوس سحب فجأة قراره الذي قدّمه لتمديد إعانة الفقراء!!! وما زال المؤرخون الأوروبيون يعللون الاستعمار الإسباني والأوروبي لأميركا وقتل سكانها الأصليين على أنه جاء نتيجةً لأزمة مالثوس!!!

والأهم من ذلك كله أنّ نظرية مالثوس الاجتماعية صارت بمثابة قانون الاقتصاد الاجتماعي وهي التي أثرت في استحداث فكرة

البقاء للأصلح، المصطلح المرتبط بعالم علوم الإنسان (الأنثروبولوجي) هربرت سبنسر (1820-1903)، أو أنّه مرتبط بنظرية "إنجيل الثروة" لكتابه أندرو كارنيجي (كانت لجنة كارنيجي هذا معنية بمشكلة الرجل الأبيض المسكين (1) في جنوب أفريقيا، ومن ثم لعبت دوراً رئيسياً في إقامة سياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا).

ثم كان مصطلح سبنسر: البقاء للأصلح هو الذي ألهم شارلس دارون وألفريد راسيل والاص في استحداث نظريتهما حول "الانتقاء الطبيعي" (لنظرية التطور). ففي 1857 حرّر سبنسر عمله الكبير: (التقدّم: قوانينه وأسبابه) بستين فئيل نشر دارون لكتابه: عن أصل الأنواع المطبوع عام 1860. كان سبنسر و دارون متعاصرين، بل كانا صديقين حميمين. فلقد قام سبنسر (المعاصر لدارون) بدوره باستخدام نظرية التطور البيولوجي لدارون مؤخراً في 1870، مُستحدثاً مفهوم (تطور الطبقات الاجتماعي) في محاولة لإضفاء صبغة علمية على التفكير الاجتماعي. ثم طوّق سبنسر ما استحدثه من (التطور الاجتماعي) مُسقطاً إياه على جميع مناحي وفعاليات الإنسان، وإعداداً برؤيته التفاضلية لمستقبل أفضل. ومن ثم امتزجت نظرية (التطور الاجتماعي) لسبنسر بالنظرية البيولوجية (الحياتية) للتطور في تقديم مفهوم جديد (خاطئ) هو: (دارونية الطبقات الاجتماعية).

الحقيقة أنّ عمل مالثوس عام 1798 "مقالة في مبدأ التكاثر السكاني" قد شاع على نطاق واسع لا يُصدّق، فقد قرأه جميع مُنظري الدارونية الاجتماعية. فقد قرأ كل من شارلس دارون، و ألفريد راسيل والاص لـ مالثوس واعترفا بالدور الذي لعبه مالثوس في تكوين أفكارهما. قرأ دارون مقالة مالثوس في مبدأ التكاثر السكاني عام 1838، أي بأربع سنوات بعد وفاة مالثوس. ويشير دارون لـ مالثوس على أنّه الفيلسوف العظيم، فقد قال: «مبدأ مالثوس هذا ينطبق بقوة مضاعفة على ممالك الحيوان والنبات، لأنه في هذه الحالة لا يوجد ازدياد صناعي لموارد الغذاء، وليس هناك انضباط عاقل للزواج». كما قرر والاص: «لكن ربما كان أهمّ كتاب قرأته هو كتاب مالثوس حول مبدأ التكاثر السكاني».

ومن ثم اقترح ابن عم دارون فرانسيس جالتون في عام 1865 وعام 1869 قيام علم

تحسين النسل (سمّاهَا: يوجينيكس). وكلمة يو-جينيكس مشتقة من الكلمة الإغريقية: يو (بمعنى جيد) ولاحقة: جينيكس (استيلاد) التي استحدثها السير فرانسيس جالتون عام 1883 وعرفها بأنها «دراسة جميع القوى الإدارية تحت السيطرة البشرية لتحسين أو إضعاف نوعية العرق البشري لأجيال المستقبل». وناقش جالتون بأنه مثلما تتوارث المواصفات الجسدية الفيزيائية بوضوح في الأجيال البشرية، فكذلك الصفات العقلية (كالعبقرية والموهبة). وناقش جالتون بأن أخلاقيات المجتمع يجب أن تتغير حتى تكون عملية الوراثة قراراً واعياً مقصوداً، من أجل تقادي التوالد الكثير لأفراد المجتمع "الأقل صلاحية وكفاءة" والتوالد القليل لأفراد "الأكثر صلاحية وكفاءة". وفي رؤية جالتون، فإن المؤسسات الاجتماعية، مثل: ملاجئ المعوقين ومصحات المجانين إنما تسمح ببقاء وديمومة البشر الرديء دون بمستويات أسرع من البشر المتفوق في المجتمع الجدير بالاحترام، وإذا لم تتخذ إجراءات التصحيح، فإن المجتمع سرعان ما يكون مغموراً بالرديء الدون.

والفقرة التالية لـ مالثوس توضح تأثيره على جالتون، حيث يقول مالثوس (في كتابه "مقالة في مبدأ التكاثر السكاني" عام 1798، الفصل التاسع، ص 72) وهو يقترح طرائق تربية الحيوان التي يمكن تطبيقها على الإنسان، قبل فكرة فرانسيس جالتون التي سمّاهَا من بعد "يو-جينيكس" (تحسين النسل) العام 1883: «لا يبدو... على أي حال أن الاهتمام بتوليد سلالة محسنة بعض الشيء (بما يشبه استحداثه في الحيوانات)، أمراً عسيراً لا يمكن استحداثه بين بني الإنسان. قد يكون انتقال الذكاء أمراً مشكوكاً فيه؛ لكن مواصفات الضخامة، والقوة، والجمال، والبشرة، وربما طول العمر يمكن نقلها لحد ما... ولما كان العرق البشري لا يمكن تحسينه دون شجب وإجبار جميع العيّنات الرديئة للتبطل والعزوبية (الامتناع من التناسل)، لذا فلا يمكن تعميم هذا التوالد كأمر عام». وهذه النظريات المنادية بالـ "العرق المتفوق" وهو عادةً عرق "نوردك" (سكان شمال أوروبا من الجرمان والإسكندنافيين) والعرق "الآري" مع تحسين النسل (يوجينيكس)، التي ابتكرها سير فرانسيس جالتون (مع آخرين) وأشاعها مع مطلع القرن العشرين، كان لها التأثير الأساسي

البارز في سياسات النازية العرقية وبرنامجهم في تحسين النسل (يو-جينيكس). طور جالتون علم يوجينيكس (تحسين النسل) ومبدأه الأساس هو "السيطرة" وتعزيز القياسات النوعية والتحليلية لـ "السمات المرغوبة" لأجل إعداد دليل مُرشد لكيفية الحصول على "النسل الممتاز حقاً". إضافة لـ آرثر دي جوينيو (أحد مؤسسي العنصرية البيولوجية) مؤلف "مقالة في التباين في الأعراق البشرية" عام 1853، فإن مؤلفات التمييز العرقي العلمي الأخرى التي أثرت كثيراً في النازية تشمل أيضاً: ماديسون جرانت، مؤلف (عبور العرق العظيم) عام 1916/1924، مع لوثر ت. شتودارد، مؤلف (ارتقاء مدّ اللون ضدّ تفوق العالم الأبيض) عام 1920.

وعلى الأغلب، فإن التمييز العرقي العلمي كان وصمة عار أعطيت أحياناً للنظريات والمقترحات الحديثة التي تدعي أن الدليل العلمي قد وُضِعَ فروعاً بالغة الأهمية في التطور بين الأعراق والمجاميع الأثنية.

لقد قرأ دارون كتابات ابن عمه (جالتون) بشغف وشديد اهتمام، حتى أنه كرّس فصولاً في كتابه (أصل الإنسان) لمناقشة نظريات جالتون. لقد قرأ دارون كتابات ابن عمه (جالتون) بشغف وشديد اهتمام، حتى أنه كرّس فصولاً في كتابه (أصل الإنسان) لمناقشة نظريات جالتون. لقد قرأ دارون كتابات ابن عمه (جالتون) بشغف وشديد اهتمام، حتى أنه كرّس فصولاً في كتابه (أصل الإنسان) لمناقشة نظريات جالتون. لقد قرأ دارون كتابات ابن عمه (جالتون) بشغف وشديد اهتمام، حتى أنه كرّس فصولاً في كتابه (أصل الإنسان) لمناقشة نظريات جالتون.

ميراث اللغة الإنجليزية العنصري البغيض وطبقات المنبوذين

إنّ ما يسمى بالعنصرية العلمية قد أثرت تأثيراً بالغ الخطورة في اللغة الإنجليزية والأوروبية (خصوصاً الإسبانية) وزودت مفرداتها اللغوية بكوكبة كبيرة من الكلمات العنصرية المخزية، بل والمروعة لدرجة أن أوروبا اليوم تحاول عدّها كلمات مندثرة مهجورة من أجل طمر وطمس تلك الحقبة التاريخية (المرتبطة بهذه الكلمات) وإخفاءها من بساط البحث، وذلك بسبب الوطأة القانونية للميثاق الأوروبي لحقوق الإنسان (التي وُضعت مسودته عام 1950 ودخل حيز التطبيق في 3 أيلول 1953) وقانون حقوق الإنسان البريطاني لعام 1998 اللذين يتضمنان الحقوق والحريات الأساسية الجوهرية المكفولة وتشمل: حقّ الإنسان في الحياة؛ والحقّ في التحرر من التعذيب والمعاملة المهينة؛ والتحرر من رقّ العبودية والعمل الإجباري؛ مع حرية الفكر والضمير والدين وحرية التعبير عن المعتقدات؛ وحقّ الإنسان في التحرر (العيش في وطن حر دونما استعمار).

شرح البروفيسور وورد تشرشل في كتابه (مسألة صغيرة حول الإبادة الجماعية - محرقة الإبادة الكاملة وإنكارها في الأمريكتين من عام 1492 وحتى الوقت الحاضر) «نشرته كتب سيتي لايت في سان فرانسيسكو 1997» في صفحة 107 - 108، بأنّ الأنظمة الاستعمارية في الأمير كتين الجنوبية والوسطى، مع المكسيك والجزء الجنوب-الغربي من الولايات المتحدة المعاصرة، قد استعمرت البلاد لأجل تقوية النظام الجديد في المقاطعات الخاضعة لنفوذها حسب قواعد عنصرية صارمة ومفصلة ومعقدة ومُشينة. سرد الكاتب الأمريكي أليكسيس دي توكفيل هذه المقولة: «هذا الرجل المولود في المهانة، هذا الغريب بيننا والدخيل إلينا عن طريق الرقّ (العبودية)، بالكاد يمكن عدّه مشتركاً معنا في مزايا الإنسانية العامة. فوجهه يبدو شنيعاً لنا، ذكائه محدود، وذوقه خسيس؛ ونحن على الغالب نعدّه أشبه بكائن وسيط بين الإنسان والبهائم». وفي جزء من إحدى قواعد القانون النافذ في اسبانية الجديدة (أي الحكم الإسباني في أميركة الجنوبية والوسطى) في القرن الثامن عشر، يوضح كل هذه القوائم المُصنفة في أميركة المحتلة من قبل الأيبيريين (الاسبان والبرتغاليين) لتوضح تدرج المنبوذين المُخلّطين من علاقات وزيجات مختلطة بين الأعراق الثلاثة الصافية الأصلية في أميركة: القوقازي الأبيض، الأفريقي الأسود، والهندي الأمريكي: 1. اسباني مع هندية (أميركية) ينجبان مستيزو (مزيج أي مُخلّط) 2. مستيزو (رجل أو امرأة) مع امرأة اسبانية (أو اسباني) ينجبان كاستيزو. 3. امرأة أو رجل كاستيزو مع اسباني أو اسبانية ينجبان اسباني. 4. امرأة اسبانية أو اسباني مع زنجي أو زنجية ينجبان مولاتو (مولّد). 5. اسباني أو اسبانية مع امرأة مولاتو (مولدة أو مولّد) ينجبان موريسكو (مغربي). 6. امرأة موريسكية مع اسباني ينجبان ألبينو 7. اسباني مع امرأة ألبينية ينجبان تورنا أتراس. 8. هندي (أميركي) مع امرأة تورنا أتراس ينجبان لوبو (بمعنى الذئب). 9. لوبو مع امرأة هندية ينجبان زامبيكو 10. زامبيكو مع امرأة هندية (أميركية)

- ينجبان كامبيوجو.
11. كامبيوجو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان ألبارازادو.
 12. ألبارازادو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان بارسينو.
 13. بارسينو مع مولاتو (مولد أو مولدة) ينجبان كويوت.
 14. امرأة كويوت مع هندي (أميركي) ينجبان شاميسو.
 15. امرأة شاميسية مع مستيزو ينجبان كويوت مستيزو.
 16. كويوت مستيزو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان آهي تي إيستاس.
- وتكمل أسماء هذه القائمة المُشينة نظام معقد آخر لهذا التركيب العنصري الاجتماعي في مُستعمرة مكسيكو (وردت أصلاً في بحث نيكولاس ليون في 1924 (لاس كاستاس مستيزج ديل مكسيكو كولونيال أو نيوفا اسبانا)، تمّ اقتباسه في م. د. أوليان 1973، الأمريكان اللاتينيون: الشعوب المعاصرة وعاداتهم الثقافية، صفحة 94):
17. موريسكو (مغربي) مع اسبانية ينجبان جينو.
 18. جينو مع هندية أميركية ينجبان سالتا أتراس.
 19. سالتا أتراس مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان لوبو.
 20. لوبو مع امرأة جينو (أي جينا) ينجبان جيبارو.
 21. جيبارو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان ألبارازادو.
 22. ألبارازادو مع امرأة سوداء ينجبان كامبيوجو.
 23. كامبيوجو مع هندية أميركية ينجبان سامبيوجو.
 24. سامبيوجو مع امرأة لوبو ينجبان كالبا مولاتو.
 25. كالبا مولاتو مع امرأة كامبيوجو ينجبان تنتي إنلا أير.
 26. تنتي إنلا أير مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان نوتي إنتيندو.
 27. نوتي إنتيندو مع هندية أميركية ينجبان تورنا أتراس.
 28. وُضِعَ هنود أميركة الأصليين في الحضيض

الأسفل من تدرج هذه القوائم، وفي العديد من الحالات يعدون عملياً لا وجود لهم البتة. إن هذا الموقف يمثل أقصى حالات الوسوسة القسرية الأوروبية نحو غير الأوروبيين. واليوم وإن أسقطت أنظمة المنبوذين قانونياً، لكن التحيز الاجتماعي المُجحف والاستغلال الاقتصادي لا زال مستمراً لا يهدأ. بالرغم من أن القمع العنصري المُعلن لم يعد مسموحاً به قانونياً، لكن الناس لا زالوا محتفظين بأرائهم الشخصية نحو الأعراق الأخرى بناءً على أفكار متحيّزة مُسبقة. في عام 1976، قام المعهد البرازيلي للجغرافية والإحصاء بدراسة لتصنيف الناس على أساس عرقي من خلال سؤالهم لتعيين ألوان جلودهم، والذي انتهى إلى 134 مصطلحاً رُتبت ترتيباً أبجدياً.



تصوير مُستيزو في لوحات المنبوذين في المكسيك خلال فترة الاستعمار الإسباني.

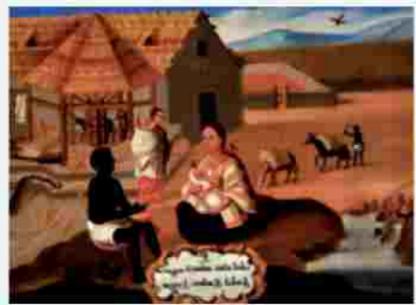
الصورة توضح اسباني مع هندية أميركية منجبين مُستيزو



اسباني مع امرأة مُستيزو ينجبان كاستيزو



امرأة اسبانية مع زنجي ينجبان مولاتو (مولد)

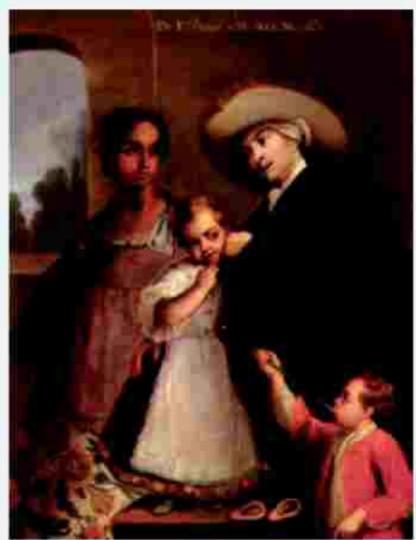


لوحة توضح: زنجي مع هندية أميركية مُنجبين لوبو، وهو هنا بديل ل زامبو.

تصوير لطفل زامبو، في لوحات المنبوذين من اسبانيا الجديدة في القرن الثامن عشر.



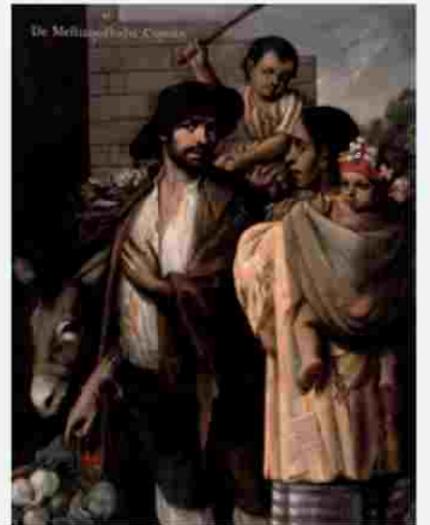
زنجي مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان أيضاً سامبو (زامبو) المدرسة الهندية، 277



اسباني مع مولاتو (أي مولدة) ينجبان موريسكو (مغربي) حوالي (3671)



هندية أميركية مع مولاتو (مولد) ينجبان جينو



مستيزو مع هندية أمريكية ينجان كويت



مستيزو مع هندية أمريكية ينجان كولو



نموذج من ألواح المنبوذيين من أهالي بيرو
مستيزو، مستيزو، مستيزو: يوضح زواجاً مختلطاً بين
مجموعة المنبوذيين.

ولا ننسى المؤلف الإنجليزي (دانيل ديفو) الذي نشر عام 1719م روايته الشهيرة المسماة بإسم البطل (روبسون كروسو) الذي نجا بعد تحطم السفينة فلاقى في الجزيرة مواطناً أسود وُضِعَ في الجزيرة عقاباً له أولاً في موته. يقول كروزو لبعنصرية وعنجهية السيد المتسيد على الآخرين: «كنت أفهمه بعدة أشياء، وأعلمته بسعادتي به، وفي وقت قصير بدأت أتكلم معه، وأعلمه ليتكلم معي، أولاً عرفته أن اسمه يجب أن يكون (جمعة) وهو اليوم الذي أنقذت حياته فيه، أنا سميتُه هكذا لذاكرة الوقت، وبالمثل علمته أن يقول (سيد)، وبعد ذلك، أعلمته أن ذلك هو اسمي (1)، كذلك علمته أن يقول: نعم، ولا، وأن

يعرف معناهما».

أنظر المصادر في الشبكة العنكبوتية تحت عنوان:

Casta
وأيضاً:
Yasmín Ramírez
New World Orders: Casta Painting" and Colonial Latin America at the "Americas Society
artnet Magazine (December 2, 1996)

إضافةً للأسماء المهجورة من الذين ولدوا من زيجات مختلطة هناك:

تيرسسيرون (ثلث أسلافه من الزوج)، كوارتيرون (ربع أسلافه من الزوج)، وكونيتيرون (الخامس في سلالة من أصل زنجي وأوروبي) وهذه لا تحتاج لشرح. لا يزال أهالي بيرو الأسبان يحتفظون بمصطلحات كولو (مولود من أسلاف مستيزو مع هندية أمريكية) و جينو. لكن من يتذكر اليوم أهمية هذه الأسماء مثل: كاستيزو، موريسكو، لوبو، جيبارو، أبارازادو، كامبوجو، بارسينو، بوشيل، كويوت، شاميسو، جالفارو، جينيزارو، جريفو، جاروشو، و سامباجو، أو الأسماء الأكثر زخرفة: سالتا أنراس، تنتي إنلا أير، نوتي إنتيندو، آهي تي إيستاس، وغير ذلك؟

بإختصار، كان تمازج الأجناس (المسمى ميزجيشن من اللاتينية ميز أي يمتزج، أو العربية مزيج، مع كلمة جينيشن من جنس) مصطلحاً أوروبياً جاء مع الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد منذ عصر الإكتشافات. وتاريخياً، فالمصطلح كان يستخدم قانونياً بعد تحرر العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية حسب القوانين المانعة لتمازج الأجناس عن طريق الزواج أو الجنس، والمسماة بقوانين منع تمازج الأجناس. لذلك فالمصطلح يعدّ اليوم عدوانياً لحد ما. تمازج الأجناس يعني امتزاج الأجناس المختلفة عن طريق الزواج، والتعايش (بين خليل و خليلته دون زواج)، والعلاقات الجنسية (علاقات عابرة محرمة)، والإنجاب التناسلي (كلها علاقات حرمة الإسلام عدا رقيق الحروب الذين يصبحوا مملوكي اليمين مع ضرورة حسن معاملتهم والإحسان إليهم). بصورة عامة، تمازج الأجناس (كما رأينا) يشمل 3 مجاميع من الذرية:

1. اسبان مع هنود أمريكيان (مثل: مستيزو وكاستيزو).
2. اسبان مع أفارقة (مولاتو وموريسكو).
3. هنود أمريكيان مع أفارقة (زامبو، لوبو، كويوت).

بعض المصطلحات الإستعمارية العنصرية الجديدة

مستيزو هو مصطلح استعماري اسباني وبرتغالي (مستيكو) كان مستعملاً في الإمبراطوريتين الأسبانية والبرتغالية في أمريكا اللاتينية للإشارة إلى الناس المنبوذيين المخلطين من أسلاف أوروبية وهندية أمريكية. يُشكل مستيزو غالب سكان أمريكا اللاتينية.

كلمة مستيزو مشتقة من العربية مزيج (من الفعل مَزَجَ) ومن اللاتينية ميكستوس أي ممتزج. في اللغة البرتغالية والفرنسية تستخدم الكلمتان كابوكلو، ميتس في امبراطورياتهم لتحديد الأشخاص من أسلاف السكان الأصليين المخلطين مع الأوروبيين. حسب المؤرخين مايكل ماير و وليم شيرمان فإن استعمال اسبانية الاستعمارية لمصطلح مستيزو في القرن السادس عشر "كان بالغالب مقروناً باللقب" (أي الإبن غير الشرعي). تحت نظام المنبوذيين في أمريكا الاسبانية وفي اسبانية، فإن مصطلح مستيزو أصلاً ينطبق على الأطفال الناتجين من الإتحاد بين أبوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أمريكي أو الأطفال الناتجين من أبوين كليهما مستيزو. خلال هذه الحقبة، استعملت مصطلحات عديدة أخرى تشمل كاستيزو (وهو شخص ثلاثة أرباعه أوروبي، ربه هندي أمريكي)، كوارتيرون الهندي، وكولو (وهو شخص ربه أوروبي، وثلاثة أرباعه هندي أمريكي) لتشير إلى الأفراد ذوي الأسلاف الأوروبية- الهندية أمريكية المختلفة بنسب أقل أو أكثر من نسبة مستيزو الـ 50 : 50. وهذه المصطلحات تستخدم غالباً بدلالات سلبية.

مولاته أو مولدة (من العربية الذكر مولاتو وبالعربية مؤلدة) بدأت نتيجة لتفاعل الإمبريالية الاسبانية مع عبودية الرقيق على مستعمرات كوبا الزراعية للتبغ والسكر. فهي جاءت نتيجة لعدم المساواة الإجتماعية الاقتصادية وأحياناً نتيجة الإستغلال العنيف للنساء السود من قبل الرجال البيض. ثم صارت مصطلحاً مشيناً

عند الأوروبيين: فقد اكتسبت صبغة جنسية من قبل الرجال البيض في القرن التاسع عشر، وتُذمّ ك "امرأة طليقة دون ارتباط"، ثم صارت توظّف للإجتذاب السياحي للرجال الأوروبيين والأمريكيين في القرن العشرين (المحمومين بالجنس). ويُنظر له مولاته (أو المولدة) بنفس الطريقة في الكاريبي وأمريكا اللاتينية بما فيها البرازيل. في كوبا كما هو في البرازيل، أصبحت مولاته أيقونةً وطنيّة بل ورمزاً للتمايز الطبقي العنصري الإقتصادي والجنسي. سامبو (أو زامبو) هو مصطلح عنصري للأفراد المنبوذيين من أصول هندية أمريكية مخلطة مع أصول أفريقية في الكاريبي كما ويستعمل أيضاً بصورة غير محددة للفرد الأسود في أمريكا الشمالية وفي المملكة المتحدة (بريطانية وإيرلندا). يُعدّ الإسم لطفة عنصرية.

ربما دخلت الكلمة (سامبو) إلى الإنجليزية من كلمة أمريكا اللاتينية الاسبانية زامبو، التي بدورها وُفدت من إحدى مصادر ثلاث من اللغة الأفريقية. فمعجم ويبستر (طبعة المعجم العالمية الثالثة) يعدّ الكلمة قد جاءت من كلمة الكونغو نزابو (أي قرد). مصدر آخر يعدها كلمة من قبيلة فوله وتعني (العم) أو كلمة من قبيلة هوسا وتعني (الابن الثاني). لكن الأقدمية الاسبانية الملكية تجعل الكلمة من أصل لاتيني وتعني بالاسبانية الحديثة "مقوس الساقين" (إشارة للأفارقة).

زامبو هو مصطلح اسباني (يقابله المصطلح البرتغالي كافيزو) مستعمل في الإمبراطورية الاسبانية وفي يومنا الحاضر لتمييز الأفراد المنبوذيين من أسلاف أفريقيّة مخلطة بالأصول الهندية الأمريكية (يقابله المصطلح الإنجليزي سامبو الذي يُعدّ اليوم وصمة عار). الكلمة المؤنثة هي زامبه (يجب عدم خلطها مع فولكلور رقص سامبا الأفرو- برازيلي، أو موسيقى سامبا، أو فولكلور الرقص الأرجنتيني - يُظن أنّ الكلمة عربية من زمبة أو زنبه أو زمر موسيقى شعبية، فطورها الأسبان إلى رقص وموسيقى بعريدة جنسية في احتفال كرنفال سنوي).

كان زامبو الأوائل بدايةً هم ذرية العبيد الأفارقة وأغلبهم من المسلمين، الذين هربوا من المستعمرات الزراعية (بسبب وحشية المعاملة) ومن حطام السفن (خلال طرق تجارة العبيد

في السفن، حيث يُحشرون فيها مثل عُلب سمك السردين)، وقاموا بمغامرات في مختلف غابات أمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية، والكاريبي، بحثاً عن ملاذ الأمان. التحق هؤلاء بمجتمعات الأمريكيان الهنود النائية للاختفاء والهرب من الاعتقال من السلطات الاستعمارية. مثال لذلك جزيرة اسبانيولا (حالياً هايتي وجمهورية دومينيكان) حيث لاقى العبيد الهاربون بعض بقايا قبائل تاينو. فحدث اختلاط عرقي وأخوي، واليوم تشكل مجموعة هؤلاء الأفرو- أمريكي نسبة صغيرة من سكان هايتي وجمهورية دومينيكان. كان الهنود الأمريكيان - وهم أحياناً تحت وطأة التطويق الاستعماري الأوروبي - متعاضفين تماماً مع ورطة وابتلاء هؤلاء العبيد الهاربين، فرحبوا بهم في مجتمعاتهم وقدموا لهم الطعام والمأوى، وغالباً ما قدموا بناتهم لهم كزوجات. لذلك، فالأسلاف الأفارقة في جاريقونا هم عادةً ينسبون للعبيد الهاربين من حطام السفن. بينما زامبو في الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية، من لوبو المكسيك، وغالب زامبو الآخرين يعتقد أنّهم عموماً منحدري من العبيد الهاربين من المستعمرات الزراعية.

وكما في أمريكا الشمالية خلال فترة استعباد الرقيق، ففي تاريخ أميركا اللاتينية شواهد على توحّد الأفارقة مع هنود أمريكا (الهنود الحمر) واجتماعهم سويةً مكوّنين معسكرات تمرد حرة لمحاربة المستعمرين الأوروبيين ومُلاك العبيد من الإقطاعيين. في أمريكا اللاتينية، سُميت هذه المستوطنات (التي هي أساساً للأفارقة العبيد المسلمين الهاربين أو مارون) مستوطنات كلومبوس (خلال طرق تجارة العبيد، فإن سكان وسط أنغولا من المقاتلين والمتمردين (يسمون إمبغالا) أنشئوا مؤسسة تسمى كيلومبو لتوحيد القبائل المختلفة بأساليبها المتعددة تهدف إلى صهرالجميع في بوتقة جماعية موحدة لأجل المقاومة العسكرية خلال زمن الإضطراب، ولعلها من العربية كلمة أي وحدة الكلمة). ومن أشهر الكولومبوسات هو معسكر بالماريس الأسطوري في البرازيل (نساء كلومبولاس البرازيليات لا زلن يرتدين غطاء الرأس الإسلامي). في ذروة

فاعلية هذا المعسكر، كان تعداد سكانه الرسمي يزيد على 30000. يشكل زامبو رسمياً، أقلّيات صغيرة في أقطار

الشمال الغربي لأميركا الجنوبية في: كولومبيا، فينزويلا، وإيكوادور. وتعرف المجتمعات الموجودة في البرازيل خصوصاً في المنطقة الشمالية الغربية للبلاد ب كافيزو.

في هندوراس، يُعرفون ب جاريقونا. رغم وجود زامبو أيضاً في أقطار الكاريبي وأمريكا الجنوبية الأخرى، مثل جمهورية دومينيكان، بيليز، ونيكاراجوا، لكن تاريخهم وأصولهم ليست مرتبطة بالضرورة بمجتمعات جاريقونا.

في المكسيك، حيث يعرفون لوبو (حرفياً تعني ذئب)، فإنهم كانوا يُشكلون أقلية كبيرة في الماضي. غالبية لوبو اليوم قد تمّ امتصاصهم وتداخلهم ضمن مجموعة سكان المكسيك الأكثر عدداً: مستيزو.

جيبارو هم جموع الفلاحين القاطنين في الجبال أو في الغابات، اسمهم مشتق من الكلمة جيبارو بمعنى التلّ، ومن العربية جبال، حيث تستخدم الكلمة في بورتو ريكو، والكلمة مرتبطة بكلمة جيفارو.

جروشو هو شخص موسيقار من فيراكروز المكسيك. إحدى الشروح عن أصل المصطلح جروشو أنّه تطور من كلمة اسبانية قديمة بمعنى فظّ أو فوضوي. جروشو يمثلون انصهار السكان الأصليين (غالباً هوستيكان) مع الأسبان، ومع عناصر الموسيقى الأفريقية، وتعبّر صورة السكان الذي نشأ في هذه المنطقة منذ زمن الاستعمار الاسباني.

جينيزارو و پابلو:

جينيزارو والمنحدرون من أصلابهم هم سكان الهنود الأصليين والذين أستوطنوا كعبيد وخدم في البيوت ورعاة للماشية في بيوتات الأسبان والمكسيك وجنوب غرب أمريكا، وحتى 1880. في نهايات 1700، كان جينيزارو والمنحدرون من أصلابهم، غالباً ما يُشار إليهم بالـ "كويوت" (تعني ابن أوى)، وكانوا يشكلون الثلث من عدد السكان الكلي في نيومكسيكو.

إنّ مصطلح جينيزارو مشتق من كلمة (جانيساري) أي إنكشاري، وهم العبيد الذين أحسنت معاملتهم وتدريبهم كجنود، ودمجهم كمواطنين في الإمبراطورية العثمانية. لكن في حالة جينيزارو، اشتكى العديد من هؤلاء الأسرى من سوء معاملتهم من قبل أسيادهم الأوروبيين، لذا تمّ تحريرهم ومنحهم أراضي ليستوطنوها

على الحدود المحيطة للمستوطنات الأسبانية. وبهذه الطريقة المتحالية، صار جينيزارو يخدمون كمجمّعات حاجزة لحماية المدن الأسبانية وصدّ هجوم القبائل المناوئة المعادية للاستعمار الأسباني.

يابلو هو مصطلح لوصف مجتمعات سكان أميركة الأصليين حديثاً وقيماً في جنوب-غرب الولايات المتحدة الأميركية. لقد استخدم المستكشفون الأسبان الأوائل لجنوب-غرب أميركة هذا المصطلح لوصف المجتمعات في المباني المؤلفة من عدة وحدات سكنية كالغرف أو الشقق، والمبنية من الحجارة، وطوب الطين، والمواد المحلية الأخرى.

وقد كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في المكسيك سيئة للغاية لدرجة أنه في عام 1837، ثار هنود أميركة من جينزارو و يابلو مع آخرين ضد الحكومة المكسيكية، وقطعوا رأس الحاكم المكسيكي ألبينو بيريز، وقتلوا جميع أفراد القوة الحامية المكسيكية في سانتا في. وشكلوا حكومة جديدة وانتخبوا جوسي أنجل كوزاليز، وهو جينزارو (من يابلو طاو من أسلاف ياوني) حاكماً جديداً لها. وأشير لهذه الثورة (حسب تصنيفات المستعمرين) بأنها (ثورة شيمايوسو) نسبة إلى مجتمع شيمايو الشائن السُّمعة والقاطن شمال نيو مكسيكو، حيث كانت موطن كوزاليز، وموطن الكثير من الهنود الأمريكيان ذوي الدماء المُختلطة. كانت هذه الثورة مثلاً واحداً من العديد من ثورات الهنود الأمريكيان السكان الأصليين ضد الحكومة المكسيكية خلال هذه الفترة، وتشمل أيضاً ثورة مايا في يوكاتان.

المقارنة بالتاريخ الإسلامي

قارن وباين بين التاريخ الأوروبي والتاريخ الإسلامي. في الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد، لم يكن تنصّر السكان الأصليين (الهنود الأمريكيان والسود) وتحولهم للنصرانية ليضمن إعطائهم مراكز نظراء مقابلين للأوروبيين بالمساواة الإنسانية؛ في الواقع إن نظام المستعمرين المهين في تصنيف طبقات المنبوذين علاوة على الوحشية الأوروبية (في معاملة كل من هو غير أوروبي على أنه أقل من رتبة الانسان، بل أحياناً تسميتهم بأسماء الحيوانات مثل:

لوبو و كويوت أو قيوط وتعني الذئب) قد أدت لثورات قام بها أولاد هؤلاء الأوروبيين أنفسهم (من تمازج الأجناس مع هنود أميركة أو مع الأفارقة) ضدهم أي ضد الأوروبيين! لكن في التاريخ الإسلامي، فإن الكثير من قادة الإسلام المرموقين بل ومن خلفاء الإسلام كانوا أولاداً لأمهات من الإماء غير العربيات؛ لقد عومل العبيد والإماء غير العرب وغير المسلمين معاملة حسنة طبقاً لمنظومة الإسلام الكاملة في القيم الأخلاقية، لدرجة أنّ الكثير منهم قد اعتنقوا لوجه الله. أمّا العبيد الذين أسلموا فقد اعتنقوا، وتم تزويجهم كأزواج وزوجات شرعيين، أو أنهم اعتنقوا ليكونوا أخوة وأخوات في الإسلام، يمتازون بنفس الموقع الإنساني والحقوق والواجبات للمسلمين العرب الآخرين.

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو القدوة الكبرى والمرجعية الأولى للمسلمين؛ فكانت مولاة رسول الله وحاضنته هي أم أيمن الحيشية السوداء، ورثها من أبيه ثم اعتنقها عندما تزوج بخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، التي كان عندها زيد بن حارثة وهو ابن ثمان سنين من سبي الجاهلية، فوهبته لرسول الله، فتبناه بمكة قبل النبوة، ونشأ زيد في أحضان النبي وأحبه حتى أن زيدا خيّر بين النبي وبين أبيه وعمّه، فأختار النبيّ عليهما حتى سمي زيد بن محمد. وكان النبيّ يحبّ أم أيمن حباً شديداً ويعدها من أهل بيته، ثم زوّجها زيد بن حارثة (وهو أبيض اللون) أيام البعثة النبوية، فولدت له أسامة بن زيد (أسود اللون)، الذي سمي حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أن إبراهيم

ابن النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان من أمته ماريه القبطية المصرية. وحين أسلم بلال الحيشي (العبد الأسود)، أعتقه أبو بكر، ومن ثم صار مؤذن النبي الخاص وسيّداً من سادات المسلمين. وفي زمن عمر بن الخطاب، حين سببت بنات يزدجرد، صارت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سالماً، والأخرى لمحمد بن أبي بكر فأولدها القاسم، والأخرى للحسين بن علي بن أبي طالب فأولدها علي زين العابدين، فسالّم والقاسم وعلي زين العابدين هم بنو خالة؛ كما أنّ جميع الحسينيين اليوم هم من نسل علي زين العابدين (في رواية أنّ أمه سندية وليست

فارسية). كذلك فإنّ الكثير من قادة الفتح الإسلامي كانوا أولاد إماء، فمثلاً:

زيد بن أبي سفيان الوالي الداهية (في زمن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، والخليفة معاوية بن أبي سفيان) كانت أمه سُمَيّة جارية الحارث بن كلة طبيب العرب الشهير؛ ومسلمة بن عبد الملك فارس بني أمية المُهم كانت أمه جارية (تسمى أم البنين أو أم ولد رفعة لقدرها). وهذا طارق بن زياد البربري الأصل (50 - 102هـ، 670 - 720م) فاتح الأندلس، كان مولى لموسى بن نصير عامل بلاد المغرب (من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك). أسلم طارق على يد موسى بن نصير وتعلم القراءة والكتابة وحفظ سوراً من القرآن الكريم وبعضاً من أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم- ثم ساعده حبه للجنديّة في أن يلتحق بجيش "موسى بن نصير" أمير "المغرب" وأن يشترك معه في الفتوح الإسلامية، وأظهر شجاعة وبراعة فائقة في القتال والقيادة، لفتت أنظار موسى بن نصير، فعهد إليه بفتح شمال أفريقيا وجعله قائد جيوش البربر التي فتحت شبه جزيرة أيبيريا. أسلم على يد طارق القبائل الوثنية في الإسلام، ومن بينها قبيلته هو أي قبيلة نفزة البربرية، وحارب طارق المشركين ودخل الكثيرون منهم في الإسلام. وبعد نجاحاته عيّنه موسى بن نصير والياً على طنجة. بل إنّ الكثير من الخلفاء كانوا أبناء أمهات البنين، فمثلاً: يزيد بن الوليد بن عبد الملك كانت أمه أم ولد. كذلك مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كانت أمه كردية اسمها لبابة (وهي جارية إبراهيم الأشتر، أخذها أبوه محمد من عسكر إبراهيم، فولدت له مروان). وهذا أبو جعفر المنصور خليفة العالم الإسلامي (136هـ-158هـ) كانت أمه أم ولد بربرية اسمها (سلامة)، ومن ثم استقرت الخلافة في ذريته (فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته)، وعاصره عبد الرحمن الداخل الأموي أمير الأندلس الذي سماه المنصور ب (صقر قريش) وكان هذا أيضاً من أمّة بربرية اسمها (داح) من قبيلة نفزة المغربية (قبيلة طارق بن زياد)، وقد استفاد عبد الرحمن من هذه القرابة حين فرّ إلى المغرب وتولّى إمارة الأندلس التي استقرت من بعده في ذريته حتى عُرفت بفترة إمارة الدولة الأموية في الأندلس 138هـ -

316 هـ (755م-928 م). وكان الناس يقولون آنذاك: تلك الأرض يحكمها ابنا بربريتين - يعني عبد الرحمن والمنصور.

بل إنّ أعظم ملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين الأيوبي هو الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي حرر القدس من الصليبيين تحريراً نهائياً، ووحد مصر والشام ككمّاشة ضدّ الصليبيين (صلاح الدين الثاني) قد كان ابناً للملك الكامل من جارية سوداء اسمها (ورد المنى)، واشترى الملك الصالح نفسه جارية اسمها (شجر الدر) أحبها ثم اعتنقها وتزوجها، وبعد موته أكملت مشوار النصر لزوجها وأبلى بلاءً منقطع النظير في صدّ الحملة الصليبية السابعة على مصر. ثم صارت هذه الأرملة أول ملكة للمسلمين. بل إنّ الملك الصالح هذا هو الذي اشترى وربّى الماليك في مصر كمفرخة لملوك إسلام أسطوريين من طراز صلاح الدين مثل: قطز، بيبرس البندقداري، وقلاوون اللأفي، الذين تصدّوا لتحطيم وإنهاء أسطورتى المغول والصليبيين: أكبر خطرين محدقين بالعالم الإسلامي آنذاك، (هذا بالرغم من التحالف المغولي-الصليبي ضد الإسلام).

المزايا الإنسانية للغة العربية

وتنفرد اللغة العربية عن لغات العالم كلها بمزاياها الإنسانية التي تعكس في مفرداتها العملية الثرية لتكريم الإنسان وللتفسيح عن المكرويين بقلب معاناتهم إلى مواساة خير وتربية على الصبر، فمثلاً :

من الفأل الحسن لكي يكون المرء لله راجياً حسن الظنّ به، مؤمناً بالقدر خيره وشره، سمّت العرب المنهوش بالسليم (أي أنّ اللديغ أو الجريح الذي أشرف على الهلاك يُسمّى سليماً، لرفع معنوياته)؛ والبرية بالمفازة (البرية هي الصحراء لا ماء بها، بينما المفازة هي المنجاة)، وكتبوا الأعمى أبا بصير؛ والأسود أبا البيضاء (مراعاةً لأحاسيسهم)، وسمّوا الغراب بحاتم (أي القاضي، بدلاً من التشاؤم به إذ كان يتمّ الزجر به على الأمور - أنظر كتاب الحيوان للجاحظ)؛ والمجنون يُسمى مطبواً (لدفع السوء عنه وكأنه تحت العلاج أو تحت تأثير السحر)؛ والخادم يُسمى مولى، كما أنّ السيد يُسمى مولى (تأديباً لأن المولى هو الخادم وهو السيد، لأنه من الأضداد الجميلة التي يُعرف معناها من سياق

الجملة):

وعن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقولن أحدكم: عبدي وأمّتي. كلكم عبيد الله. وكلّ نساكنكم إماء الله. ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي). صحيح مسلم رقم 2249
كما أنّ المصاب يُسمّى جَللاً (لتحويله من عظيم إلى هين، لأنّ جلل من الأضداد) وفرج المرأة يُدعى حياها أو عورتها (تأديباً)؛ والشمال يسمى يساراً (لتيسير الأمور ولكره أصحاب الشمال يوم القيامة)؛ والنكبة أو الفشل تُسمى امتحاناً مأجوراً عليه؛ والمعاناة فتنة (لتمييز المؤمنين من المنافقين، مشتقة من فتن الفضة؛ وهو إذابة الفضة واستخلاصها من شوائبها)؛ والابتلاء تمحيصاً (لتمييز المؤمنين الصابرين من غيرهم، مشتقة من تمحيص الذهب؛ وهو استخلاص الذهب بالنار من شوائبه)؛ والمحنة مُنحة ربّانية؛ والميت أثناء القتال يُسمى الشهيد الحيّ، بل يمتد مُسمّى حياة الشهادة التكريميّ ليشمل 7 أصناف أخرى من موتى الأمراض والمنكوبين. فقد ثبت من حديث جابر بن عتيك في الموطأ والمسند وغيرهما بسند صحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

(الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله عز وجل المطعون (الميت بمرض الطاعون) شهيد، والمبطلون (الميت بأحد أمراض البطن) شهيد، والغريق شهيد، وصاحب الهدم شهيد، وصاحب ذات الجنب (الميت بمرض صدريّ رئويّ) شهيد، وصاحب الحرق شهيد، والمرأة تموت بجمع المرأة الميتة وهي حامل) شهيدة).

كما وتنعكس مزايا التفاؤل الإنساني لقلب الضرر نفعاً، وترهيب الضارّين المُضرين وتصبير المضرورين، من خلال الأقوال العربية (وبعضها مشتقّ من القرآن والحديث) مثلاً: رَبِّ ضارّة نافعة؛ الكربة عدلّ من الله وفضل؛ تفاءلوا بالخير تجدوه؛ العلم بالتعلم والحلم بالتحلم؛ يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا وبَشِّرُوا ولا تُنْفِرُوا (أحاديث نبوية)؛ ﴿وَلَا يَجِدُ الْمَكَرَ السَّيِّئِ إِلَّا يَأْمُرُ بِهِ﴾ (سورة فاطر 43).

مَنْ حَضَرَ حَفْرَةَ لِأَخِيهِ وَقَعَ فِيهَا؛ اللهُ يُمَهِّلُ وَلَا يُمَهِّلُ؛ الجزء من جنس العمل؛ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح 6).

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿فَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء 19).

وهكذا وقع الأعاجم (غير العرب) من شتى أصقاع الأرض، وقعوا جميعاً بحبّ الإسلام وحبّ اللغة العربية (لغة الإسلام).

ولعل أجمل ما أنهى به موضوعنا هذا ما قاله الإمام الثعالبي في مقدمة (فقه اللغة وسرّ العربية):

«من أحبّ الله تعالى، أحبّ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم؛ ومن أحبّ الرسول العربي، أحبّ العرب؛ ومن أحبّ العرب، أحبّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب؛ ومن أحبّ العربية، عُنِيَ بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والأسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء والزند للنار».

لمشاهدة محاضرة العالم (روبرت شيلدريك) اضغط هنا.

المرجع:

معجم الفردوس. الجزء الأول (مقدمة الفردوس: مغامرات اللغة العربية وجهادها عبر التاريخ)؛ الفصل الثالث: (العنصرية بين لغتين - عرض ونقد) أنظر: صفحة 75-125 (منقولة باقتضاب مع بعض التصرف).